حَيَاةُ النَّبِىِّ ﷺ

الرَّسُولُ فِى المَدِينَةِ

كتبها
سلامة محمد سلامة

رسوم
عبد المرضى عبيد

جميع الحقوق محفوظة لشركة سفير

٢٠٠٣/رقم الإيداع ٢٠٠٧٠

الترقيم الدولي I.S.B.N.977-361-200-7

جرافيك وفصل ألوان : عاصم سيد أحمد

بِنَاءُ المَسْجِدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ

كَانَ أَوَّلُ عَمَلٍ قَامَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ هِجْرَتِهِ إِلَى المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ هُوَ بِنَاءَ المَسْجِدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ فِي المَكَانِ الذِي بَرَكَتْ فِيهِ نَاقَتُهُ ﷺ، وَكَانَ هَذَا المَكَانُ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ، فَاشْتَرَاهُ الرَّسُولُ ﷺ مِنْهُمَا، ثُمَّ بَدَأَ المُسْلِمُونَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي بِنَاءِ المَسْجِدِ.

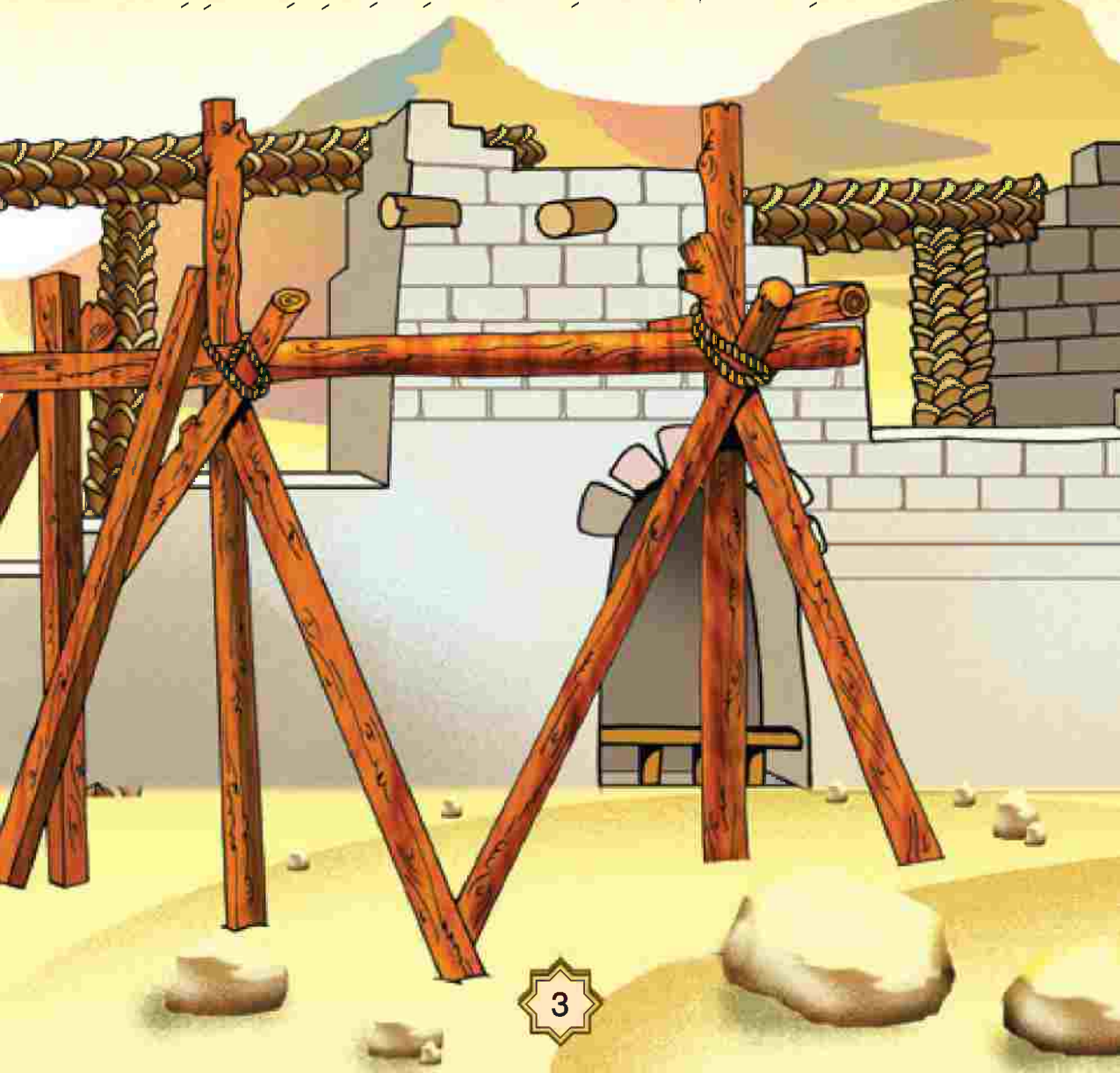

اشْتَرَكَ النَّبِىُّ ﷺ فِى البِنَاءِ بِنَفْسِهِ، فَكَانَ يَحْمِلُ الأَحْجَارَ عَلَى كَتِفِهِ ﷺ وَيُنَاوِلُ البَنَّائِينَ، وَيُحْضِرُ الطَّعَامَ والشَّرَابَ لِمَنْ يَعْمَلُونَ، مِمَّا زَادَ فِى حَمَاسِهِمْ وَنَشَاطِهِمْ فَوَاصَلُوا العَمَلَ دُونَ كَلَلٍ أَوْ مَلَلٍ فِى جَوٍّ يَمْلَؤُهُ الإِيمَانُ والحُبُّ والإِخَاءُ، وَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ يُهَوِّنُ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى غَيْرِهِ العَمَلَ بِتَرْدِيدِهِ لِهَذَا الشِّعْرِ العَذْبِ :

اللَّهُمَّ لا عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخِرَةِ

فَاغْفِرْ للأَنْصَارِ والمُهَاجِرَةِ

تَمَّ بِنَاءُ المَسْجِدِ بَعْدَ عِدَّةِ أَشْهُرٍ، وَكَانَ مَسْجِدًا بَسِيطًا، جُدْرَانُه مِنَ الطُّوبِ اللَّبِنِ، وَأَعْمِدَتُه مِنْ جُذُوعِ النَّخْلِ، وَسَقْفُه مِنَ الجَرِيدِ، أَمَّا أَرْضُهُ فَكَانَتْ مِنَ الحصَى والرِّمَالِ، ثُمَّ بَنَى النَّبِيُّ ﷺ عِدَّةَ حُجُرَاتٍ مُلاصِقَةٍ لِلْمَسْجِدِ لِتَكُونَ بُيُوتًا لأَزْوَاجِهِ، فَلَمَّا اكْتَمَلَ بِنَاءُ المَسْجِدِ وَالحُجُرَاتِ انْتَقَلَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بَيْتِ «أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ» إِلَيْهَا.

المُؤَاخَاةُ بَيْنَ المُهَاجِرِينَ والأنْصَارِ

أَصْبَحَ المُسْلِمُونَ القَادِمُونَ مِنْ أَهْلِ «مَكَّةَ» إِلَى «المَدِينَةِ» يُسَمَّونَ بِالمُهَاجِرِينَ، وَأَصْبَحَ المُسْلِمُونَ مِنْ أَهْلِ «المَدِينَةِ» يُسَمَّونَ بِالأنْصَارِ، وَقَدْ آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُمَا، فَجَعَلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الأنْصَارِ أَخًا مِنَ المُهَاجِرِينَ يُشَارِكُهُ فِي مَالِهِ وَدَارِهِ، فَفَرِحَ الأنْصَارُ كَمَا فَرِحَ المُهَاجِرُونَ بِهَذِهِ الأُخُوَّةِ العَظِيمَةِ وَالَّتِي أَصْبَحَتْ عِنْدَهُم أَقْوَى مِنَ النَّسَبِ.

بَـادَرَ الأَنْصَـارُ إِلَـى اقْتِسَامِ كُلِّ مَـا يَمْلِكُونَ مِنْ مَالٍ وَمَتَـاعٍ مَعَ إِخْوَانِهِـم المُهَاجِريـنَ بِنَفْسٍ رَاضِيـةٍ وَفَرْحَةٍ غَامِـرَةٍ، لَكِنَّ المُهَاجِرِينَ لَمْ يَأْخُذُوا مِنْ إِخْوَانِهِم الأَنْصَارِ إِلا مَـا يَحْتَاجُـونَ إِلَيْه، بَلْ رَفَضَ كَثِيـرٌ مِنْهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا شَيْئًـا وَاتَّجَهُوا إِلَـى التِّجَارَةِ وَالعَمَـلِ حَتَّى أَصْبَحَتْ لَهُمْ تِجَارَةٌ وَاسِعَةٌ وَأَمْوَالٌ طَائِلَةٌ.

الحَيَاةُ فِى المَدِينَةِ

أَرَادَ النَّبِىُّ ﷺ أَنْ يُنَظِّمَ الحَيَاةَ فِى «المَدِينَةِ» خَاصَّةً أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ خَالِصَةً لِلْمُسْلِمِينَ، إِذْ كَانَ يُشَارِكُهُم الحَيَاةَ فِيهَا مُشْرِكُونَ وَيَهُودٌ، فَكَتَبَ النَّبِىُّ ﷺ وَثِيقَةً تُنَظِّمُ عَلاقَاتِ المُسْلِمِينَ بَعْضِهِم بَعْضًا بَعْدَ أَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ الأَوْسِ والخَزْرَجِ، وَأَزَالَ مَا كَانَ بَيْنَهُم مِنْ عَدَاوَةٍ وَبَغْضَاءَ وَأَصْبَحُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ إِخْوَانًا مُتَحَابِّينَ مُتآلِفِين، كَمَا أَلْزَمَتْ هَذِهِ الوَثِيقَةُ اليَهُودَ والمُشْرِكِينَ بِالوُقُوفِ مَعَ المُسْلِمِينَ فِى الدِّفَاعِ عَنِ «المَدِينَةِ»، وفِى وَجْهِ كُلِّ مُعْتَدٍ عَلَيْهَا، وَعَدَمِ التَّعَاوُنِ مَعَ أَعْدَائِهَا فِى مُقَابِلِ أَمْنِهِم عَلَى مُعْتَقَدَاتِهِمْ وَأَمْوَالِهِم.

وَبِذَلِكَ اسْتَقَرَّتِ الأُمُورُ فِى «المَدِينَةِ» وَأَصْبَحَ لِلْمُسْلِمِينَ دَوْلَةٌ صَغِيرَةٌ لَهَا دُسْتُورُهَا وَقَوَانِينُهَا وَجَيْشُهَا، تَعِيشُ فِى حِمَاهَا طَوَائِفُ مُخْتَلِفَةٌ، وَكُلُّهَا تَحْتَ قِيَادَةِ النَّبِىِّ ﷺ.

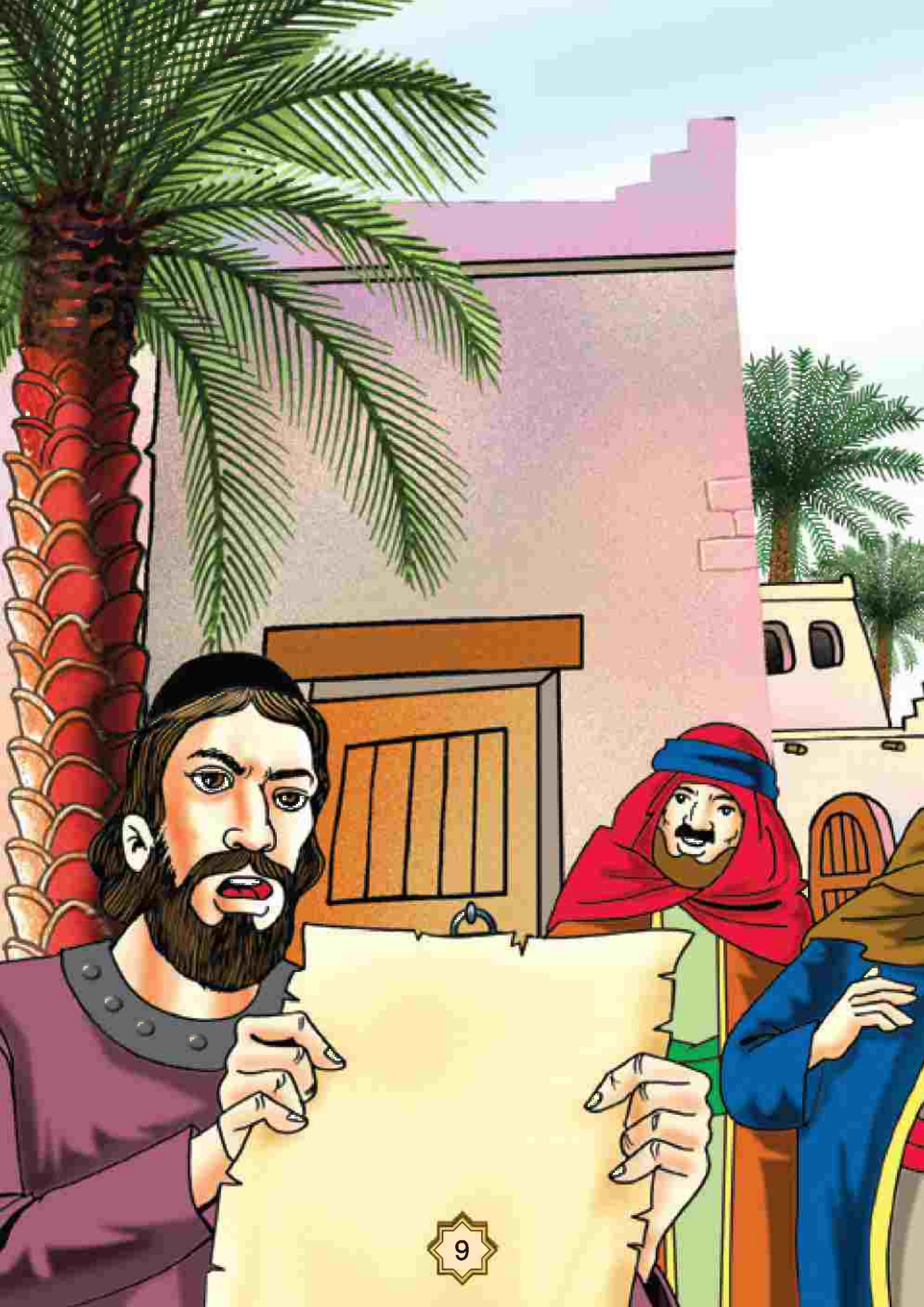

الإذْنُ بِالقِتَالِ

اغْتَاظَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ بِشِدَّةٍ بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَ لِلْمُسْلِمِينَ مَكَانٌ آمِنٌ مُسْتَقِرٌّ فِى «المَدِينَةِ» فَأَخَذُوا يُهَدِّدُونَ المُسْلِمِينَ، وَيَتَوَعَّدُونَهُمْ بِالقَتْلِ والتَّشْرِيدِ، وَيُرْسِلُونَ فِى الخَفَاءِ مَنْ يُحَاوِلُ قَتْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَيُؤْذِى أَصْحَابَهُ، وَكَانَ يُعَاوِنُ المُشْرِكِينَ جَمَاعَةٌ مِنَ المُنَافِقِينَ مِنْ أَهْلِ «المَدِينَةِ»، وَهَؤُلاءِ هُمْ مَنْ أَظْهَرُوا الإِسْلامَ، وَلَكِنَّهُم كَانُوا يُخْفُونَ فِى صُدُورِهِمُ الكُفْرَ وَيُكِنُّونَ الكُرْهَ للإِسْلامِ وَالمُسْلِمِينَ.

وَلَـمْ يَلْتَـزِم اليَهُودُ بِمَـا عَاهَدُوا عَلَيْهِ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ فَخَانُوا العَهْدَ، وَأَخَـذُوا يُحَرِّضُونَ الكُفَّارَ عَلَيْهِم، وَيُحَاوِلُونَ التَّفْرِيقَ بَيْنَهُم فَأَصْبَحَتْ حَيَاةُ المُسْلِمِينَ فِى «المَدِينَةِ» مُهَدَّدَةً بِالأَعْدَاءِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ - تَعَالَى- الإِذْنَ لِلْمُسْلِمِينَ بِقِتَالِ أَعْدَائِهِم دِفَاعًا عَنْ أَنْفُسِهِم وَدِينِهِمْ، قَالَ تَعَالَى:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾

(الحج: 39)

سَرِيَّةُ سَيْفِ البَحْرِ

بَـدَأَ النَّبِىُّ ﷺ يُعِدُّ المُسْلِمِينَ لِلْجِهَادِ فِى سَبِيلِ اللّهِ، فَأَخَذَ يُرْسِلُ السَّرَايَـا الوَاحِدَةَ تِلْـوَ الأُخْرَى، لِحِمَايَةِ «المَدِينَةِ» مِـنَ الأَعْدَاءِ وَلِعَقْدِ المُعَاهَـدَاتِ بِعَدَمِ الاعْتِدَاءِ مَعَ القَبَائِلِ المُجَـاوِرَةِ ، وَلِلْبَحْثِ عَنْ قَوَافِلِ «قُرَيْشٍ» التِّجَارِيَّةِ لاسْتِرْدَادِ بَعْضِ مَا سَلَبَهُ المُشْرِكُونَ مِنَ المُسْلِمِينَ فِى «مَكَّةَ»، كَمَا تَهْدِفُ هَذِهِ السَّرَايَا إِلَى إِلْقَاءِ الرُّعْبِ والخَوْفِ فِى قُلُوبِهِم فَلاَ يُفَكِّرُونَ فِى مُهَاجَمَةِ «المَدِينَةِ»، وكَانَتْ أَوَّلَ سَرِيَّةٍ بَعَثَهَا النَّبِىُّ ﷺ سَرِيَّـةُ «سَيْفِ البَحْرِ» فِى شَهْرِ رَمَضَانَ مِنَ السَّنَةِ الأُولَى مِنَ الهِجْرَةِ وَكَانَ أَمِيرَهَا «حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ» وَلَمْ يَحْدُثْ فِيهَا قِتَالٌ.

غَزْوَةُ الأَبْوَاءِ (ودَّان)

أَمَّـا أَوَّلُ غَزْوَةٍ غَزَاهَا النَّبِـيُّ ﷺ بِنَفْسِهِ فَكَانَتْ غَزْوَةَ «الأَبْوَاءِ»، وَكَانَـتْ فِـي شَهْرِ صَفَرٍ سَنَةَ (2هـ) وَكَانَ هَدَفُهَـا اعْتِرَاضَ قَافِلَةٍ تِجَارِيَّـةٍ لِقُرَيْشٍ، لَكِنَّ النَّبِـيَّ ﷺ لَمْ يَجِدْ هَذِهِ القَافِلَـةَ وَعَادَ إِلَى «المَدِينَـةِ» دُونَ قِتَـالٍ، وَظَلَّ النَّبِـيُّ ﷺ يُرْسِلُ السَّرَايَـا تَحْتَ قِيَادَةِ صَحَابَتِـهِ، وَيَخْـرُجُ بِالغَزَوَاتِ تَحْـتَ قِيَادَتِهِ حَتَّى شَهْـرِ رَجَبٍ سَنَةَ (2هـ) عِنْدَمَا أَرْسَلَ آخِرَ سَرِيَّـةٍ قَبْلَ غَزْوَةِ «بَدْرٍ» بِقِيَادَةِ «عَبْدِ اللَّـهِ بْنِ جَحْشٍ» إِلَى مَكَانٍ بَيْـنَ «مَكَّةَ» وَ«الطَّائِفِ» يُسَمَّى «نَخْلَةَ».

سَرِيَّةُ نَخْلَةَ

سَـارَ «عَبْـدُ اللَّـهِ بْنُ جَحْشٍ» حَتَّى وَصَلَ إِلَـى «نَخْلَةَ» فَمَرَّتْ بِهِ قَافِلَـةٌ تِجَارِيَّـةٌ لِقُرَيْشٍ، وَكَانُوا فِـى آخِرِ يَوْمٍ مِنْ شَهْـرِ رَجَبٍ وَهُوَ مِـنَ الأَشْهُرِ الحُرُمِ، فَهَجَمَ المُسْلِمُونَ عَلَـى القَافِلَةِ وَقَتَلُوا رَجُلاً مِنَ المُشْرِكِينَ يُسَمَّى «عَمْرَو بْنَ الحَضْرَمِيِّ»، فَكَانَ أَوَّلَ قَتِيلٍ لِلْمُشْرِكِينَ، وَأَسَرُوا اثْنَيْنِ، ثُمَّ قَدِمُوا بِالقَافِلَةِ والأَسِيرَيْنِ إِلَى «المَدِينَةِ»، فَغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ مِمَّا فَعَلُوا، وَقَالَ: «مَا أَمَرْتُكُمْ بِقِتَالٍ فِى الشَّهْرِ الحَرَامِ».

انْتَهَزَ الكُفَّارُ هَذِهِ الفُرْصَةَ، فَأَخَذُوا يَتَّهِمُونَ المُسْلِمِينَ بِأَنَّهُم أَحَلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَاسْتَبَاحُوا الشَّهْرَ الحَرَامَ فَقَتَلُوا رِجَالَهُم وَسَلَبُوا أَمْوَالَهُم،

فَأَصَابَ المُسْلِمِينَ بِسَبَبِ ذَلِكَ هَمٌّ وَغَمٌّ شَدِيدَانِ، حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ آياتٍ بَيِّنَاتٍ تُؤَيِّدُ مَا فَعَلَهُ المُسْلِمُونَ، وَتُوَضِّحُ أَنَّ مَا فَعَلَهُ الكُفَّارُ مِنْ مُحَارَبَةِ دينِ اللّهِ، وَاضْطِهَادِ المُسْلِمِينَ وَطَرْدِهِمْ مِنْ دِيَارِهِمْ وَسَلْبِ أَمْوَالِهِم أَكْبَرُ جُرْمًا وإِثْمًا عِنْدَ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾

(البقرة : 217)

فارْتَاحَتْ نَفْسُ النَّبِيِّ # وَاطْمَأَنَّ قَلْبُهُ، كَمَا اطْمَأَنَّتْ قُلُوبُ جَمِيعِ المُسْلِمِينَ مَعَهُ.

تَحْوِيلُ القِبْلَةِ

كَانَ المُسْلِمُونَ يَتَّخِذُونَ بَيْتَ المَقْدِسِ بِفِلَسْطِينَ قِبْلَةً لَهُمْ فِى صَلاتِهِمْ، وَكَانَ النَّبِىُّ ﷺ يَوَدُّ أَنْ يَجْعَلَ اللّهَ قِبْلَتَهُ إِلَى الكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ فِى «مَكَّةَ»، فَكَانَ كَثِيرًا مَا يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ لَعَلَّ اللّهَ يُحَقِّقُ أُمْنِيَتَهُ فَأَكْرَمَهُ اللّهُ - عَزَّ وَجَلَّ- وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ تَعَالَى :

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ ﴾

(البقرة : 144)

وَبِذَلِكَ أَصْبَحَتِ الكَعْبَةُ المُشَرَّفَةُ قِبْلَةَ المُسْلِمِينَ فِى مَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، وَكَانَ ذَلِكَ فِى شَهْرِ شَعْبَانَ فِى السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الهِجْرَةِ.